دولة الروس

اوردنا في الجزء الماضي خلاصة مختصرة من تاريخ امراء الروس وقياصرتهم من اول عهدهم الى زمن ميخائيل رومانوف الذي تولى سدة الملك سنة ١٦١٣ وهو الاول من دولة الروس الحالية . وقد رأينا ان نورد الآن خلاصة اخرى من تاريخ البلاد نفسها اي من اخبار الملوك والسكان وعاداتهم واعمالهم الدالة على درجتهم من الحضارة

الروس من امم مختلفة الاجناس والازياء كما ترى من صورهم في الصفحة المقابلة واستمروا على ازيائهم القديمة او عادوا اليها في زمن التتار واحتفظوا بها الى ان اضطرهم القيصر بطرس الاكبر الى تغييرها واقتباس الازياء المتبعة في اوربا

وامراؤهم تمثلوا بملوك اوربا ومعاصروهم حالما تنصروا فالامير يارو سلاف زوّج ابنة مار يا لكزمبرملك بولندا وابنة اليصابات لهرولد الشجاع ملك نروج وابنة حنة لهنري الاول ملك فرنسا وابنة انستاسيا لاندراوس ملك المجر وتزوج ابنة الاول بابنة هرولد ملك انكلترا وابنة الثاني بابنة ملك بولندا . وبلغت مدينة كيف في عهده مبلغاً عظيماً من العمارة حتى ماثلت القسطنطينية وكان فيها اربع مئة كنيسة وكثير من المباني الفاخرة وكان التجار يقصدونها من هولندا والمجر والمانيا

لكن العمران الذي رسخت اصوله في ذلك العهد تقلص ظله بعد ما دوّخ التتار البلاد ثم اقتدى السكان بهم رويداً رويداً حتى صاروا مثلهم وصارت ممالك اوربا تعدّهم من الامم الشرقية المتوحشة . وكاد اتصالهم باوربا ينقطع في القرن السادس عشر والسابع عشر بعد ان أحكمت ربطة في القرن الحادي عشر والثاني عشر . فصار قياصرة الروس مثل خانات التتار وسلاطين الترك يتصرفون برعاياهم كأنهم من ممتلكاتهم والرعايا يمرغون جباههم بتراب اقدام ملوكهم كما يقال في المصطلحات التركية ويحسبون انفسهم عبيداً ارقاء ملوكهم وقامت العبودية عندهم مقام الطاعة

وتعذّر على قياصرة الروس في اول الامر ان يذللوا امراء البلاد لشدة انفتهم وعزة نفوسهم فشرعوا اعاظمهم من التزوج لكي ينقطع نسلهم . وكانوا اذا اراد القيصر ان يتزوج يجمعون لديه اجمل العذارى ليختار له زوجة منهن ويقال ان العذارى اللواتي أتي بهن الى واسيلي ايفانوفتش بلغ عددهن ١٥٠٠ فاختار منهن ٥٠٠ ثم اختار من هؤلاء ٣٠٠ فثمانين فئة فعشراً واخيراً اختار واحدة من العشر وتزوج بها والحال قرّب اباها واعمامها فصاروا وزراءه

واعوانهُ واهل شوراهُ . و بديهي ان الوزراء والاعوان الذين خرج الامر من يدهم لم يكونوا ليصبروا على الضيم فاحتالوا بكل واسطة لاغتيال الزوجة التي تألم منها الخسف ولذلك قلما كانت زوجة القيصر تعمر طويلاً والغالب انها كانت تمرض فجأة وتموت بما يدسُّ لها من السم

وكانت اعمال الوزراء والاعوان في الحرب والقضاء واما دواوين الانشاء فكانت لاولاد القسوس والتجار لان الامراء كانوا يترفعون عنها . وكان القيصر مضطرًّا ان يرسل الى امرائهِ واعوانهِ ما يحتاجون اليهِ من الطعام والشراب يوميًّا . وكانت ادارة القصر مقسومة بين مئات من الامناء كامين الكؤوس الذهبية والفضية وامين الملابس وامين العقاقير وامين الاسطبل وامين البزاة وامين الصيد وامين الماجين وامين الاقزام وامين الدباب وامين الكلاب وما اشبه

وكان القياصرة تجاراً يحتكرون البضائع التي منها ربح كبير كالانسجة الحريرية والذهبية والفراء وقد يغتصبونها من اصحابها بارخص ثمن او بلا ثمن و يبيعونها باغلى الاثمان و يحتكرون البضائع الواردة الى البلاد ويضطرون الاغنياء الى ابتياعها ويضربون الضرائب على الممتلكات والنفوس . ومع ذلك لم يبلغ مجموع الضرائب كلها في عهد بوريس غودونوف سوى مليون ومئتين وثلاثة وعشرين الف روبل . وكثيراً ما كان القيصر يعفي عن الواحد من وزرائهِ واعوانهِ حتى يتنزكل ما يمكنهُ ابتزازهُ من اموال الرعية ثم يفتك بهِ فجأةً ويأخذ امواله كلها . اي ان الحال كانت في روسيا كما كانت في بلاد التتار وفي القطر المصري زمن المماليك

وكان اكثر جيش المملكة من الفرسان وهو مؤلف من الخرس الخاص وفيهِ ثمانية آلاف فارس وفرسان الاشراف وعددهم ثمانون الفاً وفرسان الاحرار وهم نحو مئتي الف و يضاف الى ذلك فرسان القزاق والدن والترك والتتار والشكير . اما المشاة فكانوا قليلاً في جنب الفرسان

وكان لباس الفرسان مثل لباس المشارقة واسلحتهم مثل اسلحتهم وكان القيصر نفسهُ يخرج الى الحرب بالرمح والقوس والنبال

اما ابهة الملك فلم يفق احدٌ لياصرة الروس فيها فكان سفراؤهم يؤمرون بالظهور بهيئة اعظم المظاهر واخمسها واذا وفد سفير من دولة اجنبية الى روسيا قوبل بالاجلال والاكرام من حين دخولهِ البلاد وقُدِّمت لهُ ولاتباعهِ المركبات والميرة وسيروهُ في اغنى الولايات واخصبها واكثرها سكاناً وطُلب من السكان ان يقابلوهُ في كل مكان وهم يافخر ملابسهم وحينما يصل الى موسكو يعطى قصراً من قصور القيصر و يرسل اليهِ الطعام من مائدتهِ . والمقابلة الاولى التي يقابلهُ القيصر بها تكون في القصر المجزع . والبهو الذي يقابلهُ فيهِ مزادن بالآنية الذهبية والفضية ويكون القيصر جالساً على عرش سليمان والتاج على رأسهِ

والصولجان في يده وتحت العرش أسود صناعية تزأر كالاسود الطبيعية ارهاباً للسفير وحوله الحرس الملكي بالقفاطين البيضاء والقبوس الفضية والاشراف بحللهم الفاخرة ورؤساء الكهنة بملابسهم البسيطة فيسأله القيصر عن سلامة الملك الذي ارسله وعما لقيه في سفره. واذا لم يسر به صار القصر الذي خصصه لسكناه سجناً له لانه لا يسمح لاحد ان يزوره او يكلمه حتى يضطر أن يعود الى بلاده

وكان سكان البلاد غير الاشراف مقسومين الى الفلاحين والتجار والفلاحون ثلاث طبقات الفلاحون العبيد اي الذين يؤسرون في الحرب ويستعبدون او الذين يبيعون انفسهم او يبيعهم غيرهم للاستعباد واولاد العبيد. والفلاحون المرتبطون باراضي الاشراف. والفلاحون الاحرار اي الذين يحق لهم ان ينتقلوا من املاك رجل الى املاك رجل آخر

والتجار هم سائر الناس والظاهر انهم كانوا كلهم غرباء في اول الامر لان معنى اسمهم الغرباء. وصادرات روسيا كثيرة من الجلود والفراء على انواعها والشمع والعسل والقنب فالزيت والسمك المقدد ولكن ظلم الولاة وابتزازهم المال من الرعية صرف السكان عن التجارة فتعاطاها غيرهم من الغرباء

وهناك فريق آخر وهو العبيد الذين في بيوت الامراء فانه كان عند كل امير مئات منهم رجالاً ونساء مشترين او مولدين وقلما كان امير يسير من مكان الى الآخر الا بموكب كبير. فاولاً تسير امامه المركبات والفرسان ليدفعوا الجوع من الطرق ثم الناس مسلحون يحيطون به ثم جيش من الخدم والحشم وهؤلاء عبيد ارقاء يبيعهم اسيادهم ويشترونهم ويسومونهم انواع العذاب لاقل سبب وكثيراً ما يبيعون الرجل ويتركون زوجته عندهم او يبيعون الزوجة ويتركون زوجها او يبيعون الاولاد ويتركون امهم او يبيعون الوالدين ويتركون اولادهم

وكان تحجب النساء قديماً عندهم من قبل مجيء التتر فزاد تمكناً واعتبرت الزوجة كبعض ممتلكات الزوج ويحق له ضربها كما يضرب جاريته. وفي وصايا الكاهن سلستر ينصح الزوج ان لا يضرب زوجته بعصاً غليظة جداً ولا يقضيب له رأس من حديد ولا امام خدمه بل على انفراد. وكانت اقوى النساء تقف امام زوجها ليضربها ولا تمانعه مهما كان ضعيفاً وهي قوية. ذكر هبرستين ان امرأة روسية تزوجت رجلاً غريباً فحسبت انه يكرهها لانه لم يكن يضربها

وكانت المرأة تقيم في خدرها وهي في البيت حتى لا يراها احد وتسبل نقاباً على وجهها حينما تخرج ومن نظر الى زوجة القيصر عُدَّ نظره اليها خيانة وعوقب عقاب الخائنين.

ولم يصح للنساء بالذهاب الى الكنائس لاجل العبادة بل كنّ يعبدنَ في بيوتهنّ وكنّ مع ذلك يتبرجنَ ويكتحلن ويزججن حواجبهنّ . قال الرحالة يثري اتفق لما كنت في روسيا ان تزوج احد الامراء بامرأة جميلة جدًّا فابت ان تتبرج مثل غيرها فاغاظ نساء الامراء منها وجعلن ازواجهنّ يشكونها الى القيصر كزدرية بعادات البلاد فامرها بان تتبرج مثلهنّ . وكان الرجال يلبسون الجبب الطويلة ويطلقون لحاهم ولا يحلقونها كام اوربا حتى قال القيصر ايفان الرهيب ان حلق اللحية خطية مميتة لا تطهرها كل دماء الشهداء لانها تتلف صورة الوجه الذي خلقهُ الله

وحرّم على الناس لعب الورق والشطرنج والنساء ولو في مدح ابطالهم القدماء وحرّم عليهم ايضًا الرقص والخروج للصيد بل حرّم عليهم المزاح وهم على موائد الطعام لئلاَّ تهرب منهم الملائكة ويأتي بدلاً منها الشياطين . لذلك وتعجب النساء لم يبقَ في روسيا شيءٌ من الانس بل صارت البلاد كلها كأنها صومعة من صوامع الرهبان . لكن هذا التقشف الظاهر لم يمنع السكر والفجور فشاعا في البلاد حتى كان الكبار والصغار والرجال والنساء يتطرحون في الشوارع سكارى ولم يستثن الكهنة من ذلك فانحصرت اسباب البهجة والسرور في السكر حتى صارت كلمة سكر وكلة فرح مترادفتين . وقد حذّرهم احد الوعاظ من السكر بقوله « اتعدون السكر فرحًا يا اصدقائي اتعدونهُ سرورًا حسب شريعة الله . السكر يبعد عنا الملائكة الذين يحرسوننا ويسر الشياطين . السكر ذبيحة للشيطان فيقول ان ذبائح الوثنيين لم تسرهُ نصف ما سرهُ سكر المسيحيين . الخمر حلال وشربها غير محرّم ولقد اعطاناها الله ليفرّحنا . وآباء الكنيسة لم يحرموا الخمر ولكن يجب ان لا نشرب حتى نسكر »

وكانت ملاهيهم مقصورة على مجالس الماذرين والرواة فلم يخلُ منهم قصر ولا دير . وقلما كان الاغنياء ينامون الاَّ وواحد يقصُّ عليهم قصة . وكان عند ايفان الرهيب ثلاثة من هؤلاء الرواة يتناوبون حول فراشهِ ليطرفوهُ باحاديثهم حتى يتعس وينام

وكانوا يعتقدون بالسحر والتنجيم وبكل خرافات الامم التي حولهم . ويثقون بالعوذ والرقى اكثر مما يثقون بعقاقير الاطباء . بل كثيرًا ما كانت صناعة الطب بلية على صاحبها لانهُ اذا لم يشفِ المريض عُدَّ ساحرًا وعرّض عقاب السحرة . من ذلك ان طبيبًا يهوديًّا قُتِل على مشهد من الناس في عهد ايفان الثالث لان القيصرة ماتت وهو يطببها

الاَّ ان ايفان الرهيب على ما اشتهر بهِ من القسوة كان من محبي المعارف ومثيري النهضة الادبية في روسيا وهو الذي ادخل الطباعة اليها وفي عهده طبع مستلافتس وليودورف

اعمال الرسل والرعاع ولكنهما اضطرا ان يغادرا البلاد لانهما اتُّهما بالكفر

وكان لسقوط القسطنطينية في يد الاتراك شأن كبير في عمران روسيا كما كان لهُ شأن كبير في عمران اوربا كلها لان كثيرين من صنّاع الروم هربوا الى بلاد الروس وهرب اليها تلامذتهم الايطاليون فبنوا فيها المباني الفاخرة من الكنائس والقصور حتى بلغ عدد كنائس موسكو الفاً وستمائة كنيسة وكلها بالقباب المذهبة والمفضضة

وكانت موسكو مبنية من الخشب ولذلك شبَّت النار فيها مراراً وحرقتها عن آخرها فلما جاءها البنّاؤون من الروم والطليان جعل القياصرة يبنون قصورها وكنائسها بالحجارة المنحوتة فبنوا الكرملين من حجارة بيضاء وجعلوا لسوره شرفات دقيقة كالاسنان واقاموا فيهِ ثمانية عشر برجاً لحمايتهِ وجعلوا لهُ خمسة ابواب كبيرة ابدعوا في تنوع اشكالها منها باب الخلص ولد بني سنة ١٤٩١ بناهُ بيترو مولاريو الميلاني . ومنهُ يدخل القياصرة حينما يأتون موسكو اول مرة . وباب القديس نيقولا وقد بني في ذلك الوقت وباب الثالوث بني في القرن السابع عشر

وفي الكرملين كثير من الكنائس والقصور والاديرة واشهر كنائسهِ كنيسة صعود السيدة التي يتوَّج فيها القيصر وقد بناها البرتو فيوراڤنتي الايطالي وهو الذي بنى المباني الفاخرة لفزما ده مديشي وفرنسيس الاول ملك فرنسا وجيان غليزو الميلاني والبابا سكستوس الرابع . وقد التقى بهِ سفير ايڤان الثالث في البندقية واستدعاهُ الى روسيا فبنى هذه الكنيسة على اسلوب بديع جدًّا وغطى اعمدتها بالذهب الابريز

ومنها كنيسة ميخائيل رئيس الملائكة وقد بنيت سنة ١٥٠٥ وفيها قبر ايڤان الرهيب وولديهِ . وكنيسة الصعود وفيها قبور القياصرة وبرج ايڤان وقد بني سنة ١٦٠٠ وارتفاعهُ ٣٢٥ قدماً ولهُ قبة مذهبة وفيهِ ٣٤ جرساً

وابدع مباني موسكو كنيسة واسيلي المطوَّب بناها ايڤان الرهيب سنة ١٥٥٤ تذكاراً لاخذهِ قازان وبانيها مهندس ايطالي ويقال ان ايڤان فقأ عينيهِ لئلا يبني كنيسة اخرى مثلها وهي المرسومة في الشكل المقابل والنظر اليها يغني عن وصفها ولا تقتصر غرابتها على التفنن في شكلها بل هي ملونة بالوان كثيرة زاهية كأنها طاووس او طائر من طيور الجنة .

وجرس موسكو المشهور صُبَّ في ذلك العهد وثقلهُ ٢٨٨ الف رطل اي ١٣١ طنًّا

ولم يكتفِ هؤلاء الصنّاع ببناء الكنائس وصب الاجراس بل بنوا الحصون وصبوا المدافع فاستعزَّت بهم روسيا الى ان استردت مقامها بين الدول الاوربية الكبرى كما سيجيء

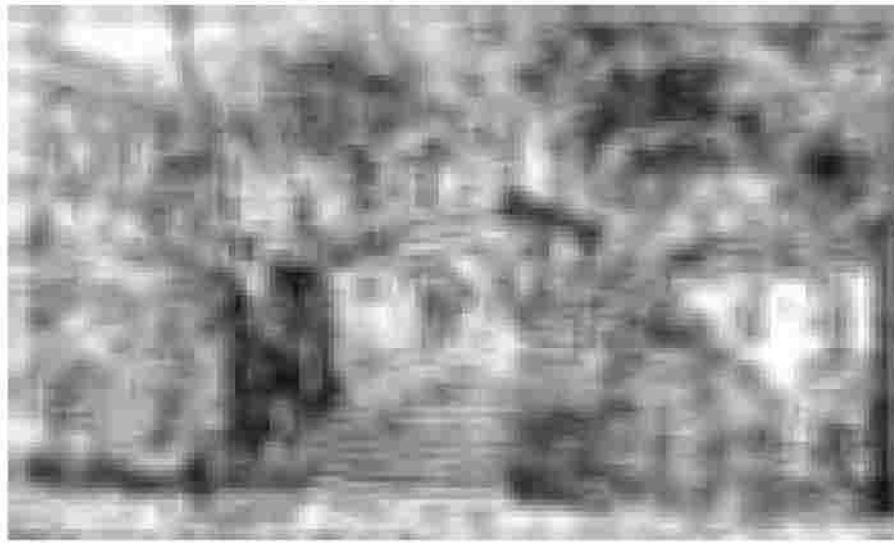

النصر الحزين